- القسم الأول :

السوبرجدلية

تعريف السوبرجدلية

السوبرجدلية مذهب فلسفي يقول التالي: يتحقق الشيء ونقيضه واتصالهما وانفصالهما واتحادهما واختلافهما في الوقت نفسه. فالشيء يولد مع ولادة نقيضه ومع نشوء المركَّب منهما معًا؛ فالظاهرة أو الحقيقة ونقيضها يشكّلان حقلاً واحدًا غير منفصل. هكذا تختلف السوبرجدلية عن الجدلية. بالنسبة إلى الجدلية، يوجد الشيء أولاً ومن ثم ثانيًا يولد نقيضه منه فيتصارعان ومن ثم ثالثًا يتحدان في مركَّب يتألف منهما معًا. لكن بالنسبة إلى السوبرجدلية، المراحل الثلاث توجد معًا وتكوِّن كائنًا واحدًا هو حقل الوجود. أي يتحقق الشيء ونقيضه والمركَّب منهما في الوقت ذاته فيغدو اختلاف الشيء عن نقيضه مجرد اتحادهما والعكس صحيح وانفصالهما مجرد اتصالهما والعكس صحيح أيضًا.

مثل ذلك أن الخير نقيض الشر، لكنهما زوجان لا طلاق بينهما؛ فهما يولدان معًا في مركَّب واحد يوحّدهما رغم تعارضهما واختلافهما. فمتى وُلِد الخير وُلِد الشر في يده والعكس صحيح. وبذلك لا يأتي الخير أولاً ومن ثم الشر أو العكس ومن ثم يتم التوحيد بينهما. بل يوجد الخير مع الشر بفضل اتحادهما المستمر

في حقل واحد. ولكونهما متناقضين يحيا اتحادهما في تقلب دائم؛ فمن غير المتوقع أيهما سيظهر في الفعل ذاته في هذه الثانية أو تلك. والدليل الأساسي على صدق العلاقة السوبرجدلية بين الخير والشر هو التالي: في أية ظروف قد نواجهها، قتل أي إنسان عمل شرير. لكن قد نواجه حالة افتراضية ألا وهي أنه لابد من قتل إنسان بريء كما طُلِب منا وإلا سيتم تدمير كل أعضاء البشرية بسلاح نووي جبّار. في هذه الحالة لابد أن نقتل ذاك الإنسان البريء لننقذ البشرية كلها. على هذا الأساس، في الحالة التي افترضناها قتل ذاك الإنسان عمل شرير لكنه أيضًا عمل خيّر. وبذلك لا فرق بين الشر والخير هنا؛ بل هما يشكّلان حقلاً واحدًا لا فصل بينهما. من هنا يولد الخير والشر والمركَّب منهما في الوقت نفسه كما تقول السوبرجدلية.

بالإضافة إلى ذلك، كل كائن حي يقتل كائنات حية أخرى ليستمر، كأن يقتلها من أجل احتلال المكان أو المحيط، أو يقتلها ليتغذى. الآن، القتل في ذاته شرٌّ، لكن أن نحيا خير، ولا يتم ذلك إلا بقتل كائنات أخرى. من هنا الفعل ذاته؛ ألا وهو قتل كائنات حية؛ هو فعل خيّر وشرير في الوقت ذاته. هكذا ينشأ الخير والشر معًا في مركَّب واحد يتكوّن باستمرار؛ أي أن الخير لا يأتي أولاً ومن ثم الشر أو العكس بل هما في اتحاد دائم رغم صراعهما ما يحتّم تكوّن الحقل الذي يجمعهما بشكل دائم وإلا انهار وزال.

سوبرجدلية العقل

العلاقة السوبرجدلية تحكم العقل وفعله. فالعقل حسابي بمعنى أنه ينتقل من معلومات إلى أخرى من خلال مناهج البرهنة فيستنتج معلومات جديدة على ضوء مبادئ مُحدَّدة. لكن من جهة أخرى نجد أن العقل غير حسابي؛ فكما أثبت «غودل» كل نظام رياضي يحتوي على عبارات أساسية فيه من غير الممكن البرهنة على صدقها وبذلك لا تجري ضمن ما يحسبه العقل رغم أن أي نظام رياضي هو المثل الأعلى في النظام الحسابي لأنه يعتمد على البرهنة في الأساس. من هنا، العقل ذاته حسابي وغير حسابي في آن. هذا يرينا أن العقل الحسابي ينشأ مع نشوء العقل غير الحسابي وبفضل نشوئه والعكس صحيح، وبذلك يشكّل العقلان عقلاً واحدًا غير منفصل الأجزاء هو عقل الإنسان. وهذا تفصيل العلاقة السوبرجدلية بين العقليْن السابقيْن. فلا يوجد العقل الحسابي أولاً ومن ثم العقل غير الحسابي ولاحقًا يظهر المركَّب منهما. بل كل هذه المراحل الثلاث توجد معًا في الوقت نفسه. ولذا العقل لا يتخلى عن كونه حسابيًا كما لا يتخلى عن كونه غير حسابي.

سوبرجدلية اللغة

العلاقة السوبرجدلية تحكم اللغة. فاللغة ذاتها لغات: لغة على أنها أداة للتخاطب والتواصل والتفاهم بين البشر، ولغة على أنها أداة للتعبير عن الواقع والوصول إلى المعرفة، ولغة على أنها مجموعة قواعد مجردة تُحدِّد المعاني. فكل نظرية تحلّل اللغة وتصفها على نحو مختلف ومعارض للنظريات الأخرى فمنها من يعرّف اللغة على أنها أداة للتخاطب والتواصل ومنها من يعرّف اللغة على أنها أداة للتعبير عن الواقع ومنها من يعتبر اللغة مجموعة قواعد مجردة. لكن كل نظرية منها تصف مرحلة من مراحل اللغة ووظيفة من وظائفها. وكل تلك المراحل والوظائف تنشأ معًا وتشكّل حقلاً واحدًا غير منفصل هو حقل اللغة. أي تولد اللغة على أنها أداة للتخاطب وعلى أنها أداة للتعبير عن الواقع وعلى أنها قواعد مجردة في الوقت ذاته وتكوِّن كلها حقلاً واحدًا غير متجزئ.

لا تأتي اللغة كأداة للتخاطب والتواصل أولاً ومن ثم اللغة كتعبير عن الواقع ومن ثم لاحقًا تظهر اللغة كقواعد مجردة أو العكس. بل تنشأ كل هذه المراحل والوظائف معًا وتشكّل كيانًا واحدًا لا يستغني جزء منه عن جزء آخر. هذه هي العلاقة السوبرجدلية الحاكمة

للغة. الآن، بما أن اللغة كأداة للتخاطب واللغة كتعبير عن الواقع واللغة كقواعد مجردة تولد في الوقت ذاته وتشكّل حقلاً واحدًا، إذن من الطبيعي أن تعتمد كل لغة منها على اللغة الأخرى. لذا من غير الممكن أن تكون اللغة أداة تخاطب وتواصل من دون أن تكون أداة تعبير عن الواقع فالواقع مشترك بيننا ما يسمح بخلق لغة مشتركة فيحدث التخاطب والتواصل والتفاهم بيننا، ومن غير الممكن أن تكون اللغة أداة تواصل وتخاطب بيننا إن لم تكن أيضًا قواعد مجردة مشتركة بيننا جميعًا. هكذا تفسِّر العلاقة السوبرجدلية اعتماد لغات اللغة على بعضها البعض.

سوبرجدلية المعنى

المعنى محكوم بعلاقة سوبرجدلية. فلا يتحدّد معنى الكلمة أو المفهوم أولاً ومن ثم ثانيًا يتحدّد معنى الجُملة المكوّنة من كلمات ومن ثم ثالثًا يتحدّد معنى السياق أو العكس. بل كل هذه المراحل الثلاث تنشأ في الوقت نفسه وتشكّل معًا حقلاً واحدًا غير منفصل بالضرورة. هكذا العلاقة السوبرجدلية تحكم المعنى. الآن، بما أن المراحل الثلاث السابقة تولد معًا وتكوِّن حقلاً واحدًا لا ينفصل، إذن إذا تغير معنى الكلمة يتغير معنى الجُملة ومعنى السياق، وإذا تغير معنى الجُملة تغير معنى الكلمة والسياق، وإذا تغير معنى السياق تغير معنى الكلمة ومعاني الجُمل. هكذا تفسِّر السوبرجدلية الحقيقة السابقة. فلو أن تلك المراحل لا تشكّل حقلاً واحدًا ولا تولد وتحيا معًا في كيان واحد، ما كان تغير معنى الكلمة يستلزم تغير معنى الجُملة أو السياق، وما كان تغير معنى الجُملة يستلزم تغير معنى الكلمة والسياق، وما كان تغير معنى السياق يستلزم تغير معنى الكلمة والجُمل. بالإضافة إلى ذلك، بالنسبة إلى السوبرجدلية، لا تتحدد معاني الكلمات من قبل الواقع خارج الإنسان ومن ثم تتحدد معاني الخطاب من قبل غايات ومقاصد الفرد أو المجتمع أو العكس. بل المرحلتان تولدان معًا في الوقت

نفسه وتشكّلان حقلاً واحدًا غير منفصل الأجـزاء. لـذا إذا تغيـر الواقع تغيرت معاني المفاهيم والعبارات والخطـاب، وإذا تغيـرت مقاصد المتكلّم تغيرت معاني المفاهيم والعبارات ذاتهـا ومعـاني الخطاب ذاته. هكذا تفسِّر السوبرجدلية أيضًا هذه الحقيقة اللغوية.

سوبرجدلية المعرفة والجهل

العلاقة بين المعرفة والجهل علاقة سوبرجدلية. فلا يأتي الجهل أولاً ومن ثم المعرفة في وقت لاحق، كما لا تكون المعرفة أولاً ومن ثم يظهر الجهل. بل تتشكّل المعرفة والجهل ومركّبهما في الوقت نفسه. هذا لأنهم يكوّنون حقلاً واحدًا غير منفصل الأجزاء. فبالمعرفة يولد الجهل، وبالجهل تولد المعرفة. المعرفة والجهل زوجان لا يفترقان. فمع زيادة المعرفة يزداد الجهل والعكس صحيح أيضًا. لذا يحق لنا الاستنتاج بأن المعرفة والجهل مرتبطان بعلاقة سوبرجدلية بمعنى أنهما يولدان معًا وينموان معًا ويشكّلان معًا كُلاً متكاملاً غير منفصل. فالمركَّب الذي يوحِّد بين النقيضيْن المعرفة والجهل ينشأ مع نشوء المعرفة والجهل في الوقت نفسه. لذا العلم يعتمد على اللايقين الذي يدفع نحو استمرارية البحث المعرفي كما يؤكد العديد من العلماء. هكذا تفسِّر العلاقة السوبرجدلية بين المعرفة والجهل لماذا يتأسس العلم على اللايقين الممثِّل للجهل، وبذلك تكتسب فلسفة السوبرجدلية قدرتها التفسيرية.

تكثر الأمثلة على العلاقة السوبرجدلية بين المعرفة والجهل منها: مع زيادة وتطور علمنا بالكائن البيولوجي الحي مازال العلماء غير قادرين على تعريف الحياة ذاتها. ومع زيادة علمنا بما يتكوّن الكون مازال العلماء أيضًا يجهلون مما يتكوّن معظمه؛ فمثلاً لا نعلم ما هي المادة والطاقة المظلمة التي تحتل معظم الكون.

من هنا مع زيادة المعرفة يزداد الجهل، وبذلك تشكّل المعرفة والجهل حقلاً واحدًا بحيث تولد المعرفة بولادة الجهل ويولد الجهل بولادة المعرفة. وكلما ازداد جهلنا ازدادت معرفتنا لأن جهلنا يدفعنا نحو استمرارية البحث المعرفي وبذلك نضمن استمرارية تدفق المعارف. من هنا النقيضان كالمعرفة والجهل يتكاملان تمامًا كما يتصارعان، ويشكّلان مركّبًا واحدًا يوحِّد بينهما فتتغذى المعرفة على الجهل ويتغذى الجهل على المعرفة فيظلان في صراع دامٍ فيما بينهما رغم تزاوجهما المستمر في حقل واحد تضمن وجوده العلاقة السوبرجدلية بينهما. فالصراع بين المعرفة والجهل ليس سوى لغة أخرى للتناغم والانسجام بينهما لأنهما يشكّلان حقلاً واحدًا هو حقل الإنسانية.

سوبرجدلية الممكن والمستحيل

يرتبط الممكن والمستحيل بعلاقة سوبرجدلية؛ فلا يوجد الممكن أولاً ومن ثم يولد المستحيل أو العكس. بل يولد الممكن والمستحيل والمركَّب منهما في الوقت ذاته وبالفعل ذاته لأنهم جميعًا يشكّلون حقلاً واحدًا. هذا هو مضمون علاقتهم السوبرجدلية. والدليل على ذلك هو التالي: القول «القطط حيوانات» قول تحليلي أي صادق من جراء معاني مفاهيمه وبذلك يستحيل أن يكون كاذبًا. لكن من جهة أخرى من الممكن أن تكون القطط آلات بدلاً من حيوانات كما أكدت الفلسفة المعاصرة. من هنا يتحد المستحيل والممكن رغم اختلافهما ويشكّلان حقلاً واحدًا لا يتجزأ؛ فلا يولد الممكن أولاً والمستحيل ثانيًا ومن ثم المركَّب منهما ثالثًا، بل يوجد في الوقت نفسه الممكن والمستحيل ومركَّبهما لأنهم جميعًا يشكّلون حقلاً واحدًا تحكمه العلاقة السوبرجدلية حيث الصراع تناغم والانفصال اتصال والاختلاف اتحاد. ففي المثل السابق الحقيقة ذاتها مستحيل أن تكون كاذبة وفي الوقت ذاته من الممكن أن تكون كاذبة. هكذا تتقلب عقولنا بين اتجاه وآخر لأن الممكن والمستحيل يولدان معًا وفي الوقت نفسه يشكّلان كُلاً واحدًا لا ينفصل. وهذا هو جوهر العلاقة السوبرجدلية بينهما.

سوبرجدلية الواقع والأكوان الممكنة

العلاقة السوبرجدلية تربط الواقع بالأكوان الممكنة. فلقد أرانا العلم المعاصر أرجحية وجود الأكوان الممكنة؛ فكما أن الواقع أي عالمنا الواقعي قد نشأ من نقطة في العدم كذلك تنشأ الأكوان الممكنة المختلفة من نقاط عدة في العدم. على ضوء هذا الاعتبار العلمي، أرجحية وجود عالمنا تساوي أرجحية وجود الأكوان الممكنة المختلفة في حقائقها وقوانينها الطبيعية. من هنا، ينشأ عالمنا الواقعي مع نشوء الأكوان الممكنة العديدة فلا يسبق كون كونًا آخر ولا يتأخر كون في الظهور عن ظهور كون آخر، وبذلك أيضًا كل الأكوان الممكنة ومن ضمنها عالمنا الواقعي تولد معًا في الوقت نفسه وتشكّل حقلاً واحدًا هو حقل الوجود لأنها تنشأ بفضل الآلية الطبيعية ذاتها ألا وهي النشوء من عدم من خلال التقلبات الكمية. هكذا العلاقة السوبرجدلية تحكم الواقع والأكوان الممكنة فتربط عالمنا الواقعي بالعوالم الممكنة المختلفة. فرغم اختلاف وتعارض الأكوان الممكنة فيما بينها، كلها تولد معًا وتكوِّن حقلاً واحدًا، وبذلك العلاقة فيما بينها علاقة سوبرجدلية لأن العلاقة السوبرجدلية لا تفصل بين المتعارضات بل تجمعها في حقل واحد لا يتجزأ فتجعل صراعها توافقًا واختلافها اتحادًا.

من وجهة نظر السوبرجدلية، الواقع غير منفصل عن الأكوان الممكنة والعكس صحيح لأنها كلها تكوِّن حقلاً واحدًا؛ فالمركَّب الذي يجمع بين الأكوان الممكنة كلها ومن ضمنها عالمنا الواقعي يوجد مع وجود أي كون ممكن وفي الوقت نفسه. ودليلنا على الترابط السوبرجدلي بين الأكوان الممكنة هو التالي: الممكنات كافة محققة في الأكوان الممكنة. وإذا لم يكن من الممكن أن يحدث كذا فلن يحدث كذا في عالمنا. وبذلك إمكانية حدوث كذا تساهم سببيًا في خلق كذا في عالمنا الواقعي. لكن تلك الإمكانية هي إمكانية لأنها محققة في عالم ممكن. وبذلك العالم الممكن حيث تتحقق تلك الإمكانية إمكانية كذا يساهم في خلق كذا في عالمنا الواقعي. من هنا الأكوان الممكنة ومن ضمنها عالمنا الواقعي مرتبطة فيما بينها بعلاقات عدة منها العلاقة السببية. على هذا الأساس تشكّل كل الأكوان الممكنة ومن ضمنها الواقع حقلاً واحدًا؛ فالمركَّب منها جميعًا يوجد بوجود أي عالم ممكن وبفضل وجوده ومع وجوده.

سوبرجدلية الحضارات

بالنسبة إلى السوبرجدلية، تنشأ كل الحضارات المختلفة معًا في الوقت نفسه فتكمن في بعضها البعض وتشكّل حقلاً واحدًا متفاعل العناصر وغير منفصل. فمثلاً، نشأت الحضارة الإسلامية بنشوء الحضارة اليهودية والحضارة المسيحية؛ فالوحي القرآني توحيد لمبادئ اليهودية والمسيحية كأن يخيّرنا بين المبدأ اليهودي العين بالعين والمبدأ المسيحي ألا وهو المسامحة. وبذلك تشكّل هذه الحضارات الثلاث حقلاً واحدًا فتعتمد على بعضها البعض لتتغذى وتنمو. وبما أنها تحيا في حقل واحد، إذن من الطبيعي أن تتنافس وتتصارع لتسيطر كل حضارة منها على الحقل بشكل كامل، لكنها جميعًا تعتمد على بعضها البعض وإلا فقدت مبرر وجودها فكل حضارة منها تُقارَن وتُحدَّد على ضوء منافسيها، وبذلك صراعها يتضمن ضرورة انسجامها كي توجد في مركَّب واحد. فبمجرد أن ولدت الحضارة اليهودية أو المسيحية وُلِدت الحضارة الإسلامية لأن الأخيرة تعتمد على الحضارتين السابقتين. وبمجرد أن وُلِدت الحضارة الإسلامية تكوّنت من جديد الحضارة اليهودية والمسيحية كرد فعل عليها، وبذلك هذه الحضارات تولد وتتكوّن بفضل بعضها البعض فيغدو صراعها انسجامًا واختلافها اتحادًا. لذا من الطبيعي

أن تبدو متصارعة كما من الطبيعي أن تبدو متحالفة. من المنطلق ذاته، نشأت الحضارة الغربية بنشوء الحضارة اليونانية والرومانية والعربية فهي تعتمد في وجودها على تلك الحضارات، ومن خلال الحضارة الغربية تُعرَّف وتُعرَف الحضارات الأخرى كالحضارة العربية. هكذا كل هذه الحضارات تشكّل حقلاً واحدًا لا يتجزأ فتولد وتنمو معًا في مركَّب واحد. فلا حضارة من دون حضارات كما لا حي من دون أحياء. فلا الصراع يحكم الحضارات ولا الانسجام يحكمها، بل العلاقة السوبرجدلية بين صراعها وانسجامها هي العلاقة الحاكمة للحضارات كافة.

سوبرجدلية التاريخ

العلاقة السوبرجدلية تحكم التاريخ. فالتاريخ تقليديًا منقسم إلى تاريخ يتطور نحو الأنجح والأفضل وتاريخ يتأخر ويتراجع نحو نمو تخلفه. بالنسبة إلى السوبرجدلية، هذان التاريخان يولدان معًا في الوقت نفسه ويشكّلان حقلاً واحدًا لا ينفصل؛ فكل تاريخ منهما يعتمد على التاريخ الآخر. لذا نجد التاريخ يتحوّل نحو التطور والارتقاء ونحو التخلف والجهل في آن. هكذا تفسِّر السوبرجدلية تلك الحقيقة فتكتسب قدرتها التفسيرية هنا أيضًا. تكثر الأمثلة على تزاوج تاريخ التطور بتاريخ التخلف. فمثلاً، تطور تاريخ الغرب فأنتج فلسفات وعلومًا راقية لكن في الوقت ذاته تاريخ الغرب تاريخ تخلف لأنه مارس ومازال يمارس الاستعمار وسرقة الشعوب الأخرى واستعبادها. هكذا تاريخ التطور وتاريخ التخلف يشكّلان حقلاً واحدًا لا يتجزأ؛ فإذا لم يكن الغرب مُستعمِرًا للآخر ما اكتسب رأسماله وما كان حينها لتطور أصلاً. وهذا ما يصدق على كل تاريخ. من هنا يولد التخلف بولادة التطور والعكس صحيح. ولذا تنجح التفاسير والأوصاف المختلفة والمتعارضة من

تفسير ووصف التاريخ نفسه. فمن الممكن وصف تـــاريخ الغـــرب على أنه تاريخ الرقي والتطور والحضارة كما من الممكن وصـــفه على أنه تاريخ الاستعمار والهمجية والتخلف من جراء اســـتعباده للآخرين. وكل وصف منها ناجح لأن تاريخ التطور وتاريخ التخلف يكوِّنان تاريخًا واحدًا لا ينفصل ما يناقض التفكير التقليدي الـــذي يقول إن التاريخ يبدأ بالتخلف ومن ثم يتطور أو العكس.

سوبرجدلية العلم والاستعمار

العلاقة بين العلم والاستعمار علاقة سوبرجدلية. هذا يعني أنهما زوجان لا يفترقان؛ بل هما يشكّلان حقلاً واحدًا لا ينفصل فيولد الاستعمار مع ولادة العلم والعكس صحيح. بالنسبة إلى السوبرجدلية، ينشأ العلم والاستعمار والمركَّب منهما في الوقت نفسه. وهذا ليس لأن العلم سيء بل لأن التطور البيولوجي للإنسان المحكوم بالانتقاء الطبيعي يحتّم استخدام العلم من أجل الاستعمار. وهذا لا يدعونا إلى رفض العلم بل لابد أن يدفعنا نحو القبول به لأن بالعلم وحده نصبح مُستعمِرين بدلاً من مُستعمَرين.

يتطور الكائن الحي كالإنسان من خلال الانتقاء الطبيعي الداروينى الذي يملي على الكائنات الحية كافة أن تكتسب الصفات الأفضل والأنجح في إبقائها على قيد الحياة. وبذلك كل ما نملك من صفات وقدرات ووظائف جسدية أو عقلية هي مجرد أسلحة من أجل الدفاع عنا وضمان استمراريتنا. على ضوء هذا الاعتبار، يغدو العلم أيضًا مجرد سلاح للحفاظ على الجنس البشري. ولذا ننتج العلوم؛ فالإنسان يبني العلم كي يضمن بقاءه فمن دون علم يفشل في التكيف مع الظروف المختلفة ويفشل في تغيير محيطه كي يناسبه ويبقيه حيًا. الآن، بما أن العلم سلاح كالمخالب الحيوانية،

إذن من الطبيعي أن يُستخدَم العلم من أجل تحقيق الاستعمار. هكذا الاستعمار من وظائف العلم الأساسية. وبذلك يولد في الوقت نفسه العلم والاستعمار واتحادهما في مركَّب واحد، ويشكّل العلم والاستعمار حقلاً واحدًا يستحيل الفصل بين أجزائه. من هنا لا ينشأ العلم أولاً ومن ثم ثانيًا ينشأ الاستعمار منه ومن ثم لاحقًا وثالثًا يتحدان في مركَّب واحد. بل هذه المراحل الثلاث تشكّل مرحلة واحدة هي عبارة عن مركَّب في تقلب مستمر بين العلم والاستعمار. فكما أن الوجود الفيزيائي محكوم بالتقلبات الكمية الخاصة بميكانيكا الكمّ، كذلك التقلب يحكم العلم والاستعمار والمركَّب منهما.

أما الأمثلة التطبيقية على العلاقة السوبرجدلية بين العلم والاستعمار فتكثر وتتشعب. فمثلاً، عندما نما العلم وتطور لدى العرب في العصور الوسطى سيطر العرب على أراضي واسعة في العالم وبذلك كانوا مُستعمِرين. أما عندما نشأ العلم وارتقى في الغرب الحديث والمعاصر أمست الدول الغربية هي المُستعمِرة للعالم. هكذا لا فصل بين العلم والاستعمار. والتفسير الوحيد لهذه الحقيقة هو أن العلم والاستعمار يشكّلان حقلاً واحدًا ويحيان في علاقة سوبرجدلية؛ فلا يظهر العلم ومن ثم يُستخدَم كسلاح استعمار بل العلم ذاته استعمار. فالاستعمار استعمار العقول.

سوبرجدلية السلوكيات والأفكار

بالنسبة إلى السوبرجدلية، تتشكّل السلوكيات كافة معًا في الوقت ذاته وتكوِّن حقلاً واحدًا غير منفصل. وهذا ما يصدق في ميدان الأفكار والمشاعر والرغبات؛ فالأفكار كافة كالمشاعر والرغبات كافة تولد معًا وتشكّل حقلاً واحدًا لا ينفصل. وبما أن السلوكيات تكوِّن حقلاً واحدًا لا يتجزأ، إذن كل سلوك يتضمن كل السلوكيات الممكنة، ولذا من الممكن بحق وصف أي سلوك على أنه عقلاني أو خيّر كما من الممكن بحق وصف السلوك نفسه على أنه غير عقلاني أو غير خيّر. هكذا تنجح السوبرجدلية من تفسير هذه الحقيقة من المنطلق ذاته، بما أن الأفكار كلها تشكّل حقلاً واحدًا، إذن كل فكرة تتضمن كل الأفكار الممكنة، ولذا من الممكن بحق وصف أي فكرة على أنها عقلانية أو خيّرة ومن الممكن بحق وصفها على أنها غير عقلانية أو غير خيّرة. هكذا أيضًا تفسِّر السوبرجدلية هذه الحقيقة. وهذا ما يصدق على المشاعر والرغبات ما يمكّن السوبرجدلية من تفسير حقيقة أننا ننجح في وصف أي شعور أو رغبة بأوصاف مختلفة ومتعارضة. على هذا الأساس تكتسب السوبرجدلية قدرتها التفسيرية فمقبوليتها.

سوبرجدلية الإنسان

بالنسبة إلى السوبرجدلية، لا تولد الغريزة الفطرية في الإنسان أولاً ومن ثم ثانيًا ينمو عقله ويصارع غريزته ويحاول السيطرة عليها باستمرار. بل تقول السوبرجدلية إن الغريزة والعقل يولدان وينموان معًا ويشكّلان حقلاً واحدًا لا ينفصل. وبذلك صراعهما وجه آخر لتوافقهما وتوافقهما وجه آخر لصراعهما. لذا نجد الغريزة ذكية كالعقل تمامًا وإلا ما كانت لتنجح في إبقاء الحي حيًا، ونجد العقل فطريًا في الأساس مثل تمسكنا بمبادئ المنطق كرفض الاعتقاد بالشيء ونقيضه في آن. وبما أن الغريزة والعقل يكوّنان حقلاً واحدًا، إذن من الطبيعي أن تكون وظيفة الغريزة مطابقة لوظيفة العقل ألا وهي الحفاظ على الحياة من خلال تجنب الضرر والإقبال على المفيد. هكذا تفسِّر السوبرجدلية التطابق بين وظيفة الغريزة ووظيفة العقل.

بالإضافة إلى ذلك، لأن الغريزة والعقل يكوّنان حقلاً واحدًا، فهذا يتضمن اختلافهما أيضًا لأن الحقل يتشكّل من عناصر مختلفة، وبذلك من المتوقع أن يختلف العقل عن الغريزة؛ فالعقل يسعى أيضًا إلى الحصول على معارف غير مفيدة في إبقائنا أحياء كالمعرفة المجردة المتمثلة في الرياضيات المجردة مثلاً. هكذا

أيضًا تتمكن السوبرجدلية من تفسير الاختلاف بين الغريزة والعقل. تشكّل الغريزة والعقل حقلاً واحدًا يتكوَّن على الدوام من جراء تنافس الغريزة والعقل من جهة وانسجامهما من جهة أخرى. لذا من الطبيعي أن يختلفا في ميزات معينة وأن يتفقا في ميزات أخرى.

من المنطلق ذاته، لا يبدأ الكائن البيولوجي بالغريزة ومن ثم يتطور ليصبح ذا عقل. بل بالنسبة إلى السوبرجدلية، تولد الغريزة مع ولادة العقل وبفضله والعكس صحيح ويكوّنان حقلاً واحدًا لا يتجزأ؛ الإنسان لا يختلف عن الحيوان سوى في درجة ارتقاء غريزته وعقله. ولأن الغريزة تنشأ بنشوء العقل والعكس صحيح ويشكّلان حقلاً واحدًا، إذن من المتوقع نجاح تفسير سلوكيات الحيوان من خلال امتلاكه لغريزة كما من المتوقع نجاح تفسير سلوكياته من خلال امتلاكه لعقل كما يحدث في العلوم السيكولوجية اليوم. هكذا تتمكن السوبرجدلية أيضًا من تفسير لماذا ينجح كل من التفسير الأول والتفسير الثاني، وبذلك تكتسب السوبرجدلية قدرتها التفسيرية.

سوبر جدلية الدين والعلم

يوجد اتجاهان أساسيان في مسألة علاقة الدين بالعلم، أولهما يعتبر أن الدين والعلم لا ينسجمان، والاتجاه الثاني يرفض ذلك ويعتبر أنهما منسجمان. لكن السوبرجدلية تقول إن الدين والعلم يولدان وينموان معًا في الوقت نفسه ويشكّلان حقلاً واحدًا لا يتجزأ. وبما أن الدين والعلم يكوّنان حقلاً واحدًا، والحقل يتكوَّن مما يختلف، وما يختلف قد ينسجم أو قد لا ينسجم، إذن من الطبيعي أن ينسجم الدين والعلم من جهة كما من الطبيعي أن يتصارع الدين والعلم وأن لا ينسجما. هكذا تفسِّر السوبرجدلية لماذا ينسجم الدين والعلم ولا ينسجمان في آن. فهما في حقل واحد ما يحتم صراعهما بسبب اختلافهما من جهة، وما يحتم انسجامهما من جهة أخرى وإلا زال حقلهما المشترك. وهذا يفسِّر بدوره لماذا ننجح في وصفهما على أنهما منسجمان وعلى أنهما غير منسجمين. فبما أن الدين والعلم يشكّلان حقلاً واحدًا، إذن من المتوقع أن ينسجما من جهة وأن لا ينسجما من جهة أخرى، وبذلك من المتوقع نجاح وصفهما على أنهما منسجمان كما من

المتوقع نجاح وصفهما على أنهما غير منسجمين. فالـــدين غيـــر محدَّد كما العلم، إذن من الممكن وصف الدين بشكل يجعله منسجمًا مع العلم أو العكس كما من الممكن وصف الدين بأســـلوب يجعلـــه غير منسجم مع العلم أو العكس. من هنا ينسجم الدين والعلـــم ولا ينسجمان في الوقت نفسه. وهذا ما يدلنا على أنهما يحيـــان فـــي حقل واحد علمًا بأن الحقل يتكوّن مما يتقلب بين صراع وانسجام.

سوبرجدلية الحياة والموت

نظن عادةً أن الحياة تولد أولاً ومن ثم يأتي الموت. لكن السوبرجدلية ترفض وجهة النظر هذه وتؤكد على أن الحياة والموت يولدان وينموان معًا ويشكّلان حقلاً واحدًا هو حقل الوجود. فالعلاقة بين الحياة والموت علاقة سوبرجدلية بدلاً من أن تكون علاقة جدلية. بالنسبة إلى العلاقة الجدلية يظهر الشيء ومن ثم يأتي نقيضه، لكن بالنسبة إلى العلاقة السوبرجدلية يظهر الشيء ونقيضه في آن ويكوّنان حقلاً واحدًا.

أما الدليل على أن العلاقة بين الحياة والموت علاقة سوبرجدلية فهو التالي: تقول علوم البيولوجيا المعاصرة إن الجينات وحدات معلوماتية تكوّن شبكة معلومات نتوارثها وتحدِّد صفات الأحياء. لكن هذه الجينات في صراع دائم فيما بينها في الجسد الحي نفسه؛ فهي لا تتفق على ما ينبغي أن يحدث في الجسد ذاته فللجينات نتائج متعارضة. فمثلاً، بعض الجينات تريد إنتاج منويات سليمة بأعداد كثيرة بينما بعض الجينات الأخرى في الكائن نفسه تريد إنتاج منويات غير سليمة. وبعض الجينات ترغب في حماية

الخلايا من الضرر بينما جينات أخرى ترغب في تحطيم الخلايا. هكذا ثمة صراع لا ينتهي بين الجينات المضرة المؤدية إلى الموت والجينات المفيدة المؤدية إلى الحياة، وبذلك ينقسم الجسد الحي نفسه إلى جسديْن متنافسيْن هما جسد وظيفته تحقيق الحياة وجسد وظيفته تحقيق الموت. من هنا، تولد الحياة والموت معًا وينموان سوية ويشكّلان حقلاً واحدًا كما تقول السوبرجدلية بالضبط.

سوبرجدلية الكون

الكون محكوم بعلاقة سوبرجدلية حيث ينشأ وينمو الشيء ونقيضه معًا في مركَّب يوحِّدهما باستمرار. من هنا، العدم والوجود يولدان في الوقت نفسه ويشكّلان كيانًا واحدًا. لذا من الطبيعي أن يوجد الوجود لأنه عدم كما يؤكد الفيزيائي آلن غوث. هكذا تكتسب السوبرجدلية قدرتها التعبيرية والتفسيرية. فهي هنا تعبّر عن الفكرة العلمية السابقة. فإذا جمعنا طاقات الكون مع بعضها البعض، ولكون الطاقة الإيجابية تساوي الطاقة السالبة في الكون، إذن الكون عدم ما يجعلنا نستنتج بحق بأن الكون قد وُجِد لأنه عدم. فلو أنه لا يوجد الكون وبدلاً منه وجد العدم سوف يوجد الكون رغم ذلك لأن الكون عدم. الآن، بما أن الكون عدم، إذن يولد الوجود بولادة العدم والعكس صحيح فيشكّلان حقلاً واحدًا، وهذا هو موقف السوبرجدلية. فلا يوجد العدم أولاً ومن ثم الكون ثانيًا أو العكس ومن ثم ينشأ مركَّبهما. بل يوجد العدم والوجود ومركَّبهما في الوقت ذاته لأنهم في علاقة سوبرجدلية.

بالإضافة إلى ذلك، بما أنه بالنسبة إلى السوبرجدلية، الشيء ونقيضه يولدان معًا في مركَّب واحد، إذن من المتوقع أن تنشأ الطاقات المتعارضة لبعضها البعض في الوقت ذاته فيتم اختزالها

ويتشكّل العدم ويصبح من الممكن فيزيائيًا تحرر طاقة معينة من العدم فيولد الكون من جراء التقلبات الكمية التي تصيب الفراغ تمامًا كما تقول ميكانيكا الكمّ. هكذا تفسِّر السوبرجدلية هذه الحقائق. وبما أنه يولد الشيء ونقيضه معًا في مركَّب واحد، إذن من المتوقع أيضًا أن تولد الطاقة السالبة والطاقة الإيجابية معًا وأن يتقاسما العالم كما هو حاصل في الكون فعليًا. هكذا أيضًا تفسِّر السوبرجدلية هذه الحقيقة. فالكون هو المركَّب الموحِّد للأشياء ونقائضها، لذا من الطبيعي أن يتكوّن الكون من متعارضات متساوية كالطاقة الإيجابية والسلبية. كما أن نظرية ميكانيكا الكمّ العلمية تؤكد على وجود كل التواريخ المختلفة والمتعارضة للجسيم وتصر على أن الجسيم يتصرف على أنه جسيم وعلى أنه نقيض الجسيم أي على أنه موجة وتقول إن قطة شرودنغر حية وميتة في آن. من هنا، ينشأ الشيء ونقيضه معًا في مركَّب واحد. وهذا هو موقف السوبرجدلية. هكذا للسوبرجدلية أسس علمية صلبة. ولأن هذا المركَّب من الشيء ونقيضه يتشكّل من الشيء ونقيضه، إذن من الطبيعي أن يتصارع الشيء ونقيضه، وبذلك هذا المركَّب من الشيء ونقيضه هو مجرد حقل؛ فالحقل قد يتركب من متعارضات متصارعة لأنه دومًا في حالة تشكّل مستمر. على هذا الأساس، التحاقلية آلية السوبرجدلية.